من آداب المجاهد وتزكية النفس

للشيخ عبد العزيز الناصر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:

فلما كان الجهاد في سبيل الله عز وجل من أعظم العبادات التي يحبها الله عز وجل ولما كان الجهاد فيه ما فيه من المشاق وبذل المال والنفس في سبيل الله تعالى أصبح الاستعداد له بالإيمان والإخلاص والمتابعة والصبر وقوة الصلة بالله عز وجل أمراً لابد منه وإلا خارت القوى وانحلت العزائم . ومن ذلك أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بقيام الليل الطويل استعداداً لتحمل القول الثقيل وتبليغه للناس وتحمل أعباء الرسالة قال الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل :1-4).

كما أن الإعداد الإيماني والأخلاقي للمجاهدين ضروري لتحقيق النصر على الأعداء عند ملاقاتهم والثبات عند قتالهم؛ قال الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد :7).

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى (هذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه والدعوة إليه وجهاد أعدائه وأن يقصدوا بذلك وجه الله ، فإنهم إذا فعلوا ذلك نصرهم وثبت أقدامهم. أي يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات ويصبر أجسادهم على ذلك ويعينهم على أعدائهم فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه وييسر له أسباب النصر من الثبات وغيره)(1).

ومن الإعداد الإيماني علماً وعملاً وحالاً المباعدة بين المجاهدين وبين المعاصي والذنوب أو الميل إلى الدنيا والتي هي من أسباب الخذلان والهزيمة كما قال عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما في مسيره إلى غزو الفرس : (فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو...، إلى قوله: فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم؛ وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة).

وذكر البخاري في كتاب الجهاد في صحيحة قال : (باب:عمل صالح قبل القتال ، وقال أبو الدرداء :إنما تقاتلون بإعمالكم)(2).

ومما يؤكد العناية بجانب التزكية والتربية والآداب للمجاهدين ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم من الصفات الطيبة الظاهرة و الباطنة لمن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة :111).

ثم عقب على هذه البيعة بصفات المؤهلين للجهاد الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى فقال سبحانه : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة :112) قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لرجل قال له : أريد أن أبيع نفسي من الله فأجاهد حتى أقتل ،فقال له ويحك وأين الشروط؟أين قوله تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة :112) (3).

وقد اشتملت هذه الآية على أصول الأعمال الباطنة والظاهرة التي يحبها الله عز وجل؛ **يقول الشيخ السعدي رحمة الله** في تفسير هذه الآيات ((وإذا أردت أن تعرف قدر الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله. وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها؛ جنات النعيم . وإلى الثمن المبذول فيها، وهو : النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان. وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع ، وهو أشرف الرسل . وبأي الكتب رقم، في كتب الله الكبار المنزلة على أفضَل الخلق.

كأنه قيل : من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟

فقال: هم ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي الملازمون للتوبة في جميع الأوقات، عن جميع السيئات.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات، في كل وقت؛ فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿الْحَامِدُونَ﴾: لله في السراء والضراء واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة و الباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره، في آناء الليل، وآناء النهار.

﴿السَّائِحُونَ﴾: فسرت السياحة، بالصيام والسياحة في طلب العلم. وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام. والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات ، كالحج ،والعمرة، والجهاد،وطلب العلم،وصلة الأقارب،ونحو ذلك.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾: بتعلمهم حدود ما انزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام ،وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً)) (4).

ويقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى عن هذه الآية:

(ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال، إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة :112).

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته ،وهذه هي صفاتها ومميزاتها: توبة ترد العبد إلى الله، وتكفه عن الذنب، وتدفعه إلى العمل الصالح. وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته. وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله. وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق. وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة .وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين،ويصونها من التهجم والانتهاك)(5).

أركان التزكية

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى قاعدة ذهبية تتضمن أركان التزكية التي إذا اتصف بها أي فرد أو طائفة فإن التوفيق والنصر حليفهم في الدنيا والآخرة وإن تخلف واحد من هذه الأركان أو أكثر فإن الخذلان

من نصيبهم. وستكون هذه القاعدة هي محور الحديث في هذا الباب المختصر عن (آداب المجاهد وتزكية النفس) إن شاء الله تعالى .

يقول أبن القيم رحمه الله تعالى:

(....فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً و مخرجاً، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في أثنين منها ، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم ينصر، وإن نصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق وسيلة إليه فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً ،فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلا لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه برياً من الحول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكته المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زمر الأعداء)(6) .

من هذا الكلام النفيس نخلص إلى أن أركان التزكية المؤدية إلى الفوز والنصر والتوفيق ثلاثة أركان:

الركن الأول : أن يكون القيام في حق وليس في باطل وذلك من قوله (فإذا قام العبد بالحق)

الركن الثاني : أن يكون القيام لله عز وجل وطلب رضاه وذلك من قوله:(وكان قيامه لله)

الركن الثالث : أن يكون القيام بالله عز وجل استعانة به وتوكلاً عليه وحده متبرئاً من الحول والقوة إلا به وهذا يفهم من قوله:(وكان قيامه به)

الركن الأول : القيام بالحق

والمقصود هنا بالقيام بالحق أن يكون المجاهد على فقه من دينه وبصيرة من أمره يعلم لماذا يقاتل وفي سبيل من يقاتل. على بصيرة بأحكام دينه العينية وما يحتاجه في جهاده من الفقه، وعلى علم بالراية التي يقاتل

تحتها وعلى علم وبصيرة بحقيقة أعدائه الذين يقاتلهم وحقيقة الراية التي يرفعونها، على علم بربه سبحانه وأسمائه وصفاته،مطمئن بأن هذا الجهاد الذي يقوم به محبوباً لله عز وجل مرضياً له، موقناً بأنه من أعظم القربات وأفضلها عند الله عز وجل موقناً بثواب الله عز وجل وصدق وعده للمجاهدين في سبيله. قال عز وجل ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف :108) .

والشاهد من هذه الآية قوله سبحانه (على بصيرة) أي على علم ويقين بأن ما يدعو إليه الداعية ويجاهد من أجله المجاهد هو الحق الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه وهو الموافق لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم . وبدون العلم بالشرع والفقه بغايات الجهاد والفهم الصحيح للعقيدة، تفسد الدعوة ويتلوث الجهاد ويتخلف بذلك شرط من شروط قبول العمل عند الله عز وجل ألا وهو المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمجاهد لا يملك إلا نفساً واحدة فلا يجوز المخاطرة بها في أمر قد لا يكون مرضياً لله عز وجل ولا موافقاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

وأسوق بهذه المناسبة ثلاث مواقف من مواقف السلف رضي الله عنهم يظهر فيها حرصهم العظيم على معرفتهم بالطريق الذي يجاهدون فيها هل هي حق مرضية لله عز وجل فيمضون فيها أو ليست كذلك فيحجمون عنها.

الموقف الأول : تلك المناظرة المشهودة التي تمت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في قتال المرتدين حيث خفي على عمر رضي الله عنه في أول الأمر مشروعية قتالهم فناظر أبا بكر رضي الله عنه في ذلك فبين له أبو بكر ذلك حتى انشرح صدرعمر لقتالهم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب قال عمر :يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ،فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) ،قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها .قال عمر فو الله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق)(7).

والشاهد في هذا الموقف أن عمر رضي الله عنه لم يقبل الدخول في القتال إلا بعد المناظرة وقناعته بأن ذلك هو الحق.

الموقف الثاني: روى الذهبي في السير قال : وقال حميد بن هلال: أتت الحرورية مطرف بن عبدالله يدعونه إلى رأيهم فقال :((يا هؤلاء لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما، وأمسكت الأخرى، فإن كان الذي تقولون هدى أتبعتها الأخرى وإن كان ضلالة هلكت نفس وبقيت لي نفس ، ولكن هي نفس واحدة لا أغرر بها))(8).

الموقف الثالث : روى ابن وضاح - رحمه الله تعالى – في كتابه ((البدع والنهي عنها)) بسنده ((قال : حدثنا أسد قال : حدثنا مبارك بن فضالة عن يونس أبن عبيد عن أبن سيرين قال: أخبرني أبو عبيدة بن حذيفة قال جاء رجل إلى حذيفة بن اليمان –وأبو موسى الأشعري قاعد- فقال أرأيت رجلاً ضرب بسيفه غضباً لله حتى قتل أفي الجنة أم في النار ؟ فقال أبو موسى في الجنة قال حذيفة : استفهم الرجل وأفهمه ماتقول قال أبو موسى: سبحان الله ، كيف قلت ؟ قال: قلت: رجل ضرب بسيفه غضباً لله حتى قتل أفي الجنة أم في النار؟ فقال أبو موسى: في الجنة. فقال حذيفة: استفهم الرجل وأفهمه ما تقول .حتى فعل ذلك ثلاث مرات ، فلما كان في الثالثة قال : والله لا تستفهمه، فدعى به حذيفة فقال: رويدك ، إن صاحبك لو ضرب بسيفه حتى ينقطع فأصاب الحق حتى يقتل عليه فهو في الجنة، وإن لم يصب الحق ولم يوفقه الله للحق فهو في النار . ثم قال والذي نفسي بيده ليدخلن النار في مثل الذي سألت عنه أكثر من كذا وكذا)(9).

والمقصود أن يعلم بأن معرفة الحق والتأكد منه في أي أمر يراد القيام به من أهم جوانب التزكية والتوفيق. ومعرفة الحق لا تتأتى إلا بالعلم بالشرع والبصيرة في الدين واستبانه سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . فعلم بذلك أن العلم هو أساس العمل،وهو قبل القول والعمل . والجهاد من العمل ،فإن لم يكن العلم صحيحاً موافقاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإن العمل سيكون باطلاً ومنحرفاً. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة يعلم أصحابه أصول هذا الدين ، ويعلمهم العقيدة وما تقتضيه من ولاء وبراء وإذعان وانقياد لله تعالى كما يعلمهم الإخلاص وإرادة الدار الآخرة في جميع الأقوال والأعمال . فلما جاء الإذن بالجهاد، وما تلا ذلك من فرضيته ظهرت آثار هذا العلم في تضحياتهم العظيمة وفتوحاتهم المباركة.

ولذلك وجب على المهتمين بأمور الدعوة وتربية الناس وتوجيههم وإعدادهم للجهاد في سبيل الله عز وجل أن يولوا هذا الجانب اهتماماً كبيراً، وأن يركزوا في برامجهم الدعوية وأنشطتهم المختلفة على تحقيق الحد الأدنى من العلم بسبيل المؤمنين -وهم أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح-انطلاقاً من القرآن الكريم وتدبره، والسنة الصحيحة بفهم الصحابة رضي الله عنهم وأن يستفاد من كل وسيلة متاحة مشروعة لبناء العلم الشرعي في النفوس؛ سواء على هيئة دروس علمية عامة أو خاصة، أو بالاستفادة من الأشرطة

العلمية المسجلة. والمقصود أن يهتم المربون بهذا الجانب المهم من الإعداد لأنه هو الأساس ،فإن صلح صلح ما بعده، وإن فسد فسد ما بعده.

ويحسن أن يذكر في هذا المقام قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة :65).

فقد بين الله عز وجل أن سبب انتصار المؤمنين -مع قلتهم -على الكفار مع كثرتهم عدداً وعتاداً هو عدم فقه الكافرين عن الله عز وجل وعدم فقههم بالمبدأ الذي يقاتلون من أجله وعدم إيمانهم بالوعد والوعيد في الآخرة ويقابل ذلك فقه المؤمنين عن الله عز وجل وأسمائه وصفاته وسننه ووعده ووعيده وشريعته مما يكون له الأثر الأكبر في ثباتهم وصبرهم. وهذا يؤكد اثر تربية المجاهد وتثقفه في دينه قبل القتال وأثنائه على ثباته وشجاعته.

وانقل بهذه المناسبة تعليقاً مفيداً للإمام الشنقيطي صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى على هذه الآية وذلك من شريط مسجل بصوته حيث يقول: (والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عند الله هو كالبهيمة ليس له مبدأ يقاتل عليه والذي يتقدم إلى الميدان وخطوط النار الأمامية وليس عنده مبدأ نبيل يقاتل عليه فهو جبان هزيمته قريبة سريعة لا يقاوم أبدا . أما من يفقه عن الله ويفهم فإنه يقول: إن ربي اشترى مني هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة وهي حياة مكدرة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان أشتراها مني بحياة سرمدية أبدية ليس فيها كدر ولا ألم ولا حزن وهذا مال قليل أشتراه مني بالحور العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان فهو ينتظر ما عند الله فاهم عن الله يفقه عن الله ومثل هذا المتقدم في الميدان لا يهزم أبداً ولو قتل لكانت هي أمنيته وهذا الذي يقاتل على هذا المبدأ العظيم وهذا الغرض الصحيح فاهماً عن الله يفقه عن الله هذا لا يقاومه الأهوج الجاهل الذي لا يفقه شيئاً ولا يقاتل على مبدأ لأن حياته أهم عنده مما يقاتل عليه. فالذين لا يفقهون عن الله من الجنود العسكريين لا يمكن أن يردوا صائلاً ولا أن يعلوا كلمة الله لأنهم لا مبدأ لهم وهم قوم لا فقه لهم فلا يقاتلون على شيء ترخص بسببه نفوسهم عندهم،رغبة فيما عند الله وهذا سر لطيف، وتعليم سماوي هائل يفهم منه المسلمون أن أول شيء من الأساسيات للاستعداد للميدان هو الفقه والفهم عن الله .فيجب كل الوجوب أن يعلم العسكريون عن الله حتى يفقهوا لأنهم إذا كانوا فاهمين عن الله عارفين للمبدأ الذي يقاتلون عليه كانوا شجعاناً صابرين لا يفرون من

القتل ولا يهزمون كما سجله التاريخ لأوائل هذه الأمة وإن كانوا لا يفقهون عن الله شيئاً وكانوا جهالاً كالأنعام لا مبدأ لهم يقاتلون عليه فهم ليسوا بأساس ولا معول عليهم يهزمون مع أول ناعق)أ.هـ .

الركن الثاني: القيام لله عز وجل وحده

والمقصود بهذا الركن أن يكون القلب سليماً مخلصاً لله عز وجل متجرداً من أي شبهة يردبها خبر الله عز وجل أو خبر رسوله صلى الله عليه وسلم وسالماً من أي شهوة يرد بها أمر الله عز وجل وسالماً من أي إرادة تعارض الإخلاص لله عز وجل وفي هذا يقول الإمام القيم رحمه الله تعالى: (أعلم أن ((التسليم)) هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر و الشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة والمنازعة: إما بشبهة فاسدة تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله وما أخبر به عن اليوم الأخر وغير ذلك فالتسليم له ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإما بشهوة تعارض أمر الله عز وجل . فالتسليم للأمر : بالتخلص منها.

أو إرادة تعارض مراد الله من عبده ،فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب فالتسليم : بالتخلص منها أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره ،بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ما شرع ، وخلاف ما قضى وقدر فالتسليم : التخلص من هذه المنازعات كلها)(10).

من مظاهر القلب السليم:

أولاً: التسليم والانقياد لأحكام الله تعالى الدينية الشرعية

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع؛ ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت نبيها، وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت، وسلمت، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها، وكان رسولها أعظم في صدورها من سؤالهاعن ذلك كما في الإنجيل: ((يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا، ولكن قولوا بم أمر ربنا))؛ ولهذا كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً لا تسأل نبيها لم أمر الله

بذلك؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام ،وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، ولذلك يوجب تعظيم الرب تعالى وأمره ونهيه، فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه، ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيم الأمر دليل على تعظيم الآمر وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إلية والمبادرة به رغم القواطع والموانع ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ثم فعله لكونه مأمور به، بحيث يتوقف الإنسان على معرفة حكمته فإن ظهرت له فعله وإلا عطله ، فهذا من عدم عظمته في صدره ، بل يسلم لأمر الله وحكمته ممتثلاً ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر ،أو فقهها العقل ،كانت زيادة في البصيرة والداعية في الامتثال وإن لم تظهر له حكمته لم يوهن ذلك انقياده،ولم يقدح في امتثاله)(11).

ثانياً: التسليم لأحكام الله الكونية القدرية:

فما كان فيها للعبد كسب واختيار فإنه يدافع الضار منها بفعل الأسباب المشروعة للمدافعة فيدافع أقدار الله عز وجل بأقداره كمدافعة قدر الجوع والعطش بالأكل والشرب وقدر الحريق بالسعي لإطفائه وهكذا.

وأما الذي يجري على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه فهذا حقه الاستسلام وترك المخاصمة مع شهود عزة الله عز وجل وحكمته وعدله في قضائه وإحسان الظن به سبحانه بشهود لطفه ورحمته فيما يقدره سبحانه على عباده المؤمنين وانه سبحانه له أكمل الحمد وأتمه.

ومن ثمرات التسليم لأحكام الله القدرية الصبر و الرضى والطمأنينة وهذه من الأعمال القلبية التي لا غنى للمجاهد عنها فهي زاده التي يستعين بها بعد الله عز وجل على مواجهة الشدائد والمحن قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة :153).

وقال الله عز وجل عن المجاهدين الأولين من المهاجرين والأنصار ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:22).

ثالثاً: الإخلاص لله تعالى

وهذا الوصف من أعظم أوصاف القلب السليم حيث يسلم من أي إرادة أو غرض يعارض الإخلاص لله عز وجل وإن هذا العمل القلبي الشريف مما يجب على المجاهد بخاصة العناية به والاطمئنان إلى تحققه لان الأعمال لا تصح ولا تقبل عند الله عز وجل إلا به والجهاد في سبيل الله تعالى من أشرف العبادات وأحبها

إلى الله عز وجل والمجاهد يقدم فيه أغلى ما عنده وهي نفسه التي بين جنبيه فإن لم يكن قاصداً بجهاده وجه الله عز وجل ورضوانه وجنته خسر خسرانا مبينا.

وكما أن للإخلاص أثره في نيل رضا الله سبحانه وما أعده للمجاهدين الصادقين، فإن له أثر كذلك في الثبات أمام الأعداء لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح :18).

وإذا تمكن الإخلاص من القلوب أثمر التضحية والشجاعة في سبيل الله عز وجل ،وأثمر الصبر ، والزهد في الدنيا ومتاعها الزائل، وتوحد الهم في إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دين الله تعالى؛ وبذلك ترتفع الهمة ويعلو المقصد ويوجه إلى الله تعالى والدار الآخرة وما أعد الله فيها لعباده المجاهدين من الرضوان والنعيم ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

يقول شيخ الإسلام أبن تيميه رحمه الله تعالى ((والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا،وأن يكون الدين كله لله ومقصوده إقامة دين الله لا استيفاء الرجل حضه،ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ؛ فإن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة))(12).

ولذلك لا يكاد يذكر الجهاد في الكتاب والسنة إلا ويذكر بعده ((في سبيل الله)) وكذلك من يقتل في القتال مع الكفار لا يسمى شهيداً إلا إذا كان في سبيل الله قال تعالى ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة :154).أي الذين أخلصوا في جهادهم لله تعالى ولم يريدوا شيئاً من حظوظ هذه الدنيا الفانية.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله ((ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء ؟ إنهم أولئك الذين يقتلون ((في سبيل الله)) في سبيل الله وحده، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله. في سبيل هذا الحق الذي أنزله .في سبيل المنهج الذي شرعه .في سبيل هذا الدين الذي اختاره. . في هذا السبيل وحده لا في أي سبيل آخر ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار، وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث ، حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر .. غير الله..

عن ابي موسى رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة،ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال:(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) أخرجه مالك والشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال:يا رسول الله: رجل يريد الجهاد في بيل الله وهو يبتغي بذلك عرضاً من الدنيا ؟ فقال : (لا أجر له) أخرجه أبو داود.

وعنه رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيله؛ لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس حمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل) مسلم(1876)

فهؤلاء هم الشهداء .هؤلاء هم الذين يخرجون في سبيل الله فلا يخرجهم إلا جهاد في سبيله ، وإيمان به ،وتصديق برسله

ولقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بنسبته في مجال الجهاد : عن عبد الرحمن بن أبي عقبة عن أبيه-وكان مولى من أهل فارس- قال :شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت : خذها وأنا الغلام لفارسي. فالتفت إلي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (هلا قلت وأنا الغلام الأنصاري ؟ إن ابن أخت القوم منهم ،وإن مولى القوم منهم (

فقد كره له صلى الله عليه وسلم ان يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين.وهذا هو الجهاد،وفيه وحده تكون الشهادة وتكون الحياة للشهداء))(13)

ويقول في موطن آخر : ((ولقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض،ولا تنتظر إلا الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب .ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين .. حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء .. وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت ، أتاها النصر في الأرض

وائتمنتها عليه،لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة، منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه،ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه))(14)

وهناك أفات خطيرة تتضاد مع الإخلاص يجب على كل مسلم وبخاصة المجاهد أن يتنبه لها ويحذرها حتى لا يصير العمل هباءً منثوراً ومن أخطرها:

(1)البحث عن الشهرة وثناء الناس ومدحهم أو إرادة عرض الدنيا من مال أو منصب.

ويكفينا في مقت هذه الآفة حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة وفيه : (ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له : فيما قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول له: كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال: (يا أبى هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة) (15).

وما أحسن ما ذكره الإمام أبن القيم رحمه الله تعالى في مقته لهذه الآفة الخطيرة حيث يقول : (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذلك الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص .فإن قلت :وما لذي يسهل علي ذبح الطمع، والزهد في الثناء، والمدح ؟قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيء سواه وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده) (16).

ولقد كان المجاهدون من سلف الأمة يحرصون على إخفاء أعمالهم الجهادية لتحقيق الإخلاص ومن ذلك.

ما رواه الذهبي في السير قال : قال محمد بن المثني: حدثنا عبد الله بن سنان قال: كنت مع ابن المبارك والناس، فلما أصطف الجمعان ،خرج رومي ،فطلب البراز،فخرج إليه مع أبن المبارك والناس، فلما أصطف الجمعان ،خرج رومي ،فطلب البراز،فخرج إليه رجل،فشد العلج عليه فقتله،حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة ولا يخرج إليه أحد فالتفت إلي أبن المبارك فقال : يا فلان،إن قتلت فافعل كذا وكذا ،ثم حرك دابته، وبرز للعلج، فعالج معه ساعة فقتل العلج وطلب المبارزة

فبرز له علج أخر فقتله حتى قتل ستة علوج وطلب البراز فكأنهم كاعوا عنه فضرب دابته وطرد بين الصفين ثم غاب فلم نشعر بشيْ وإذا أنا به في الموضع الذي كان فقال لي :يا عبد الله لئن حدثت بهذا أحدا وأنا حي فذكر كلمة(17).

(2) مجانبة العدل والأنصاف

هذا الخلق الذميم ناتج من ضعف الإخلاص لله تعالى ووجود الهوى في النفس وإلا فالقلب المخلص لله تعالى السالم من الهوى والحقد لا تراه إلا عادلاً منصفاً لا يبخس الناس حقوقهم ويذكر لهم خيرهم وبلاءهم يتثبت في الأخبار ولا يتسرع إلى نقل الشائعات يحب الخير لإخوانه المسلمين يفرح لفرحهم ولإصابتهم للحق ويحزن لمجانبتهم للصواب وما أحوج المجاهد إلى هذه الصفات العالية لوجود ما يضادها ويكدرها .

(3)الكبر والتعالي

وهذا مما يتنافى مع الإخلاص لله تعالى لأن المتكبر يرى أن لنفسه فضلاً على الناس ويحب أن يعضموه ويجلوه وأن يشتهر على الناس وهذا دليل على ضعف الإخلاص لله تعالى إذ أن المخلص لله تعالى لا تراه دائماً إلا متواضعاً هاضماً لنفسه في جنب الله تعالى.

(4)الخيانة والغدر ونقض العهد وهذا الخلق المذموم مما يتضاد مع الإخلاص لله تعالى وسلامة القلب وقد جاء في الحديث الصحيح أنه من خصال المنافقين وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان،وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)(18).

وقد جاءت الآيات والأحاديث في الحث على حفظ الأمانة والعهود كما قال سبحانه في وصف المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾(المؤمنون: 8).

ونهى عن الخيانة بقوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال :27).

ولذا وجب الاهتمام بتقوية هذا الخلق الكريم ودفع ما يضاده وبخاصة في إعداد المجاهدين وذلك لما يتعرض له المجاهد من مواقف تتطلب منه إبرام عهد أو عقد للقيام بمهام معينة في الجهاد، أو يسُتودع

بعض الأسرار التي تتعلق بالجهاد أو تُوكَل إليه أموال الجهاد قبضاً وإنفاقاً وحفظاً وغير ذلك من المهمات التي تحتاج إلى إخلاص وتقوى ومراقبة لله تعالى.

(5)الحسد والغل وإثارة الفرقة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يغل عليهن قلب سلم ،إخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ،ولزوم جماعتهم فان دعوتهم تحوط من ورائهم)(19)

وآفة الحسد والغل والتفريق بين المسلمين مرض قلبي خطير منشؤة ضعف الإخلاص لله تعالى إذ أن من ثمار الإخلاص الطيبة في الدنيا أنه سبب من الأسباب القوية في سلامة القلوب ووحدة الصف وجمع الكلمة وائتلاف القلوب وقطع الطريق على من يريد التحريش بين المسلمين وإثارة الفرقة بينهم؛ لان من أعظم أسباب الفرقة و الاختلاف والتناحر بين الدعاة والمجاهدين بعضهم مع بعض ضعف الإخلاص وتغلب الهوى، وحظوظ النفس فإذا حصل الإعداد القوي والتربية الجادة على الإخلاص قبل الجهاد وأثناءه فإن هذا من شأنه أن يقضي على الفرقة والتناحر،وأن يوحد الصف ويجمع الكلمة على قتال الأعداء ،وبهذا يقضى على سبب خطير من أسباب الفشل والهزيمة ؛قال تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال :46.(

ومع أن الحسد والغل دليل على ضعف الإخلاص لله تعالى فهما أيضاً دليلان على معارضه الله عز وجل في أقداره وعدم التسليم لحكمه وقضائه ولذا يقول أبن القيم رحمه الله تعالى (فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما أتاه الله فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله ..)(20).

(6)حب الانتقام والتشفي وعدم كظم الغيظ

إن القلب المخلص لله تعالى السالم من الحقد والحسد لا تراه إلا محباً للعفو والصلح لا ينتقم بل يكظم الغيظ عن من أخطأ عليه من إخوانه المسلمين وما أحوج المجاهد إلى هذه الصفات قال الله عز وجل ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران :133-134).

وبالتأمل في هذه ألأيه نجد أن الله عز وجل قد ذكر قبلها آيات في غزوة أحد و الاستعداد لها ؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (آل عمران :121).

ثم بعد ذكر هذا لآيات في هذه الغزوة انتقل السياق إلى نهي المؤمنين عن أكل الربا،ثم حثهم على المسارعة إلى الجنة بالإنفاق في سبيل ،والعفو عن الناس وكظم الغيظ، ثم عاد السياق مرة أخرى إلى مواصلة الحديث عن غزوة أحد بقوله ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ) (آل عمران :137)

فما معنى توسط هذه الآيات بين آيات الحديث عن غزوة أحد؟

والجواب – والله أعلم- إن كظم الغيظ والعفو عن الناس وترك الذنوب وطاعة الله ورسوله من عدة النصر لأن السيطرة على النفس وعدم الانتقام هو من علامة سلامة القلوب والإخلاص لله تعالى الذي هو من أكبر قوى المعركة وكذلك التضامن والتواد والتراحم والتغافر بين المجاهدين هو أيضاً قوة ذات فاعلية في الغلبة والنصر على الاعداء.

رابعاً: محبة الله عز وجل وسلامة القلب من أي محبة تعارض محبة الله سبحانه:

يقول الله عز وجل ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة :24).

والمحبة هي أصل العبادة، وهي ثمرة معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته الحسنى، وهي مستلزمه لتوحيده وطاعته، وكلما قويت المحبة في قلب العبد ظهر أثرها في الانقياد التام لأمر الله والتضحية في سبيله، وبغض أعدائه ومجاهدتهم وموالاة أوليائه ونصرتهم كما يظهر أثرها في البعد عن الحزبيات المقيتة والرايات العصبية والمنافع الدنيوية؛ فلا ينقلب بغيض الله حبيباً له بإحسانه إليه، كما لا ينقلب حبيب الله له بغيضاً إذا وصله منه ما يكرهه ويؤلمه؛ والمجاهدون في سبيل الله عز وجل أو من يعدون أنفسهم للجهاد أحوج من غيرهم إلى تزكية هذا العمل القلبي الشريف؛ وذلك حتى لا يتورط المجاهد في رايات عمية ولوثات حزبية أو وطنية أو قومية .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي . فتنوع المدعون في الشهود . فقيل : لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران :31).

فتأخر الخلق كلهم . وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة :54(

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون فقيل لهم إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة :111).

فلما عرفوا عظمة المشترى ، وفضل الثمن ، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة وأن لها شأناً. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس . فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي ، من غير ثبوت خيار . وقالوا (والله لا نقيلك ولا نستقليك).

فلما تم العقد وسلموا المبيع ، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معاً ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران :169،170)

إذا غرست شجرة المحبة في القلب ، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار . وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت في قرار القلب . وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيْ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر :10).(21)

من علامات محبة الله عز وجل:

أولا: محبة من يحبه الله عز وجل وما يحبه وبغض من يبغضه الله عز وجل وما يغضبه قال الله عز وجل ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة :4(

ثانياً: كثرة ذكر الله عز وجل واستغفاره والتوبة إليه:

فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره . ومن ضعف المحبة الغفلة عن ذكر المحبوب ولذا حث الله عز وجل المجاهدين في سبيله إلى ذكره في القتال يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ (الأنفال :45) وفي أثر إلهي يقول الله تعالى (إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه) سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يستشهد به.

وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال. كما قال عنترة: ولقد ذكرتك والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم.

وهذا كثير في أشعارهم . وهو مما يدل على قوة المحبة. فإن ذكر المحب محبوبة في تلك الحال – التي لا يهم المرء فيها غير نفسه – يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه، أو أعز منها . وهذا دليل على صدق المحبة. والله أعلم)(22).

وقد مر بنا من صفات المجاهدين الذين اشترى الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم أن من صفاتهم أنهم ﴿الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾. والدعاء هو العبادة، والحمد: هو ذكر الله عز وجل والثناء عليه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وبما أنعم وأحسن على عباده.

وقد سن الرسول صلى الله عليه وسلم أدعية وأذكاراً في اليوم والليلة ينبغي للمسلم وخاصة المجاهد ومن يعد نفسه للجهاد أن يحفظها ويذكر الله بها في أوقاتها؛ فهي من أكبر العون في طمأنينة القلب وتوكله على الله وحده واستحضار معية الله سبحانه له؛ وذلك كما جاء في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم..) (23) الحديث.

وأعظم الذكر قراءة القرآن قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (الأنبياء:50) وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر :9)، وإن مما ينبغي على الداعية والمجاهد أن لا يغفل عن كتاب الله عز وجل ، بل يتعاهده حفظاً وتلاوة وتدبراً ، وأن يكون له حزب يومي لا يخل به مع كتاب الله عز وجل.

ومن الذكر لله عز وجل كثرة استغفاره والتوبة إليه سبحانه والإنابة إليه.

وقد ذكر الله عز وجل في آية التوبة أن من صفات المجاهدين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم أنهم ﴿التَّائِبُونَ﴾.

والتوبة: الرجوع إلى الله عز وجل والإنابة إليه والندم على فعل الذنب بعد الإقلاع عنه، وعدم الرجوع إليه. وحاجة المجاهد إلى التوبة والاستغفار شديدة؛ لأن المجاهد معرض أكثر من غيره للعجب بعمله الصالح مع دنو أجله وتعرضه للموت في كل لحظه ولأن أكثر ما يخذل المجاهدين في المعارك ذنوبهم؛ فبالتوبة والاستغفار تمحى آثار الذنوب وتزول أسباب الهزيمة والخذلان، فضلاً عن أن التوبة عبادة عظيمة من العبادات التي يحبها الله عز وجل ويفرح بها.

والمجاهد بشر ليس بمعصوم ، بل إنه معرض للذنوب ، ولكن المؤمن لا يصر على الذنب ، بل يسرع الرجوع ويستغفر ربه عندما تضعف نفسه وتزل قدمه ؛ قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:201(

وقال سبحانه في الآيات التي سبقت قصة أحد في آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران :135.(

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم يكثر من الاستغفار ويقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» ، ويقول صلى الله عليه وسلم :(يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة) (24).

ثالثاً: التقرب إلى الله عز وجل بأنواع القربات والطاعات ابتداء بالفرائض وإتقانها والزيادة على ذلك بالنوافل والمستحبات ففي ذلك علامة على صدق المحبة لله عز وجل كما أنها تثمر محبة الله عز وجل للعبد وحفظه له كما جاء في الحديث القدسي: (من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها) (25) ومما يدل على أن فعل ما أمر به الله عز وجل من الطاعات من علامات صدق المحبة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران :31(

ومن أفضل الطاعات التي يحرص المجاهد على التقرب بها إلى الله عز وجل:

أولاً: الصلاة

سبق وأن مر بنا في وصف المجاهدين المذكورين في سورة التوبة، والذين اشترى الله عز وجل منهم أنفسهم وأموالهم أن من صفاتهم: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾؛ وكأنها صفة لازمة لهم؛ لا تراهم إلا ركعاً وسجداً يعبدون ربهم بهذه الشعيرة العظيمة، هي لذتهم ونور حياتهم وقرة عيونهم وسعادة قلوبهم، ولذلك لا يقدمون عليه مالاً ولا ولداً ولا مراداً من مردات النفوس؛ يلبون نداء الصلاة فور سماعهم للنداء، يحافظون على أدائها في جماعة مبكرين لها محافظين على إتقانها بأركانها وواجباتها وخشوعها. ويزيدون عليها بالسنن الرواتب، لا يفرطون فيها ويحافظون على النوافل الواردة من صلاة الضحى وقيام الليل ، يحذرون الآخرة ويرجون رحمة الله عز وجل؛ كما قال الله عز وجل في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان :64) وقال أيضاً عنهم ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (الذاريات :17(

وهم بذلك يرجون أن يكون لصلاتهم أثارها ومنافعها الدنيوية والأخروية.

وإن من الإعداد للجهاد الاهتمام الشديد بالصلاة فرضها ونفلها ؛وذلك لأنها أم العبادات، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، فضلاً عن كونها زاد للمجاهد في طريقه الشاق الطويل؛ يستعين بها على ما يواجهه في جهاده من تكاليف ومشاق وقتل وقتال وهجر للمال والأولاد ؛ قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة :45.(

فمن لم يكن له زاد من الصلة بالله عز وجل فإنه لا يقوى على مواصلة الطريق ولا على الثبات أمام الأعداء في ساحات الوغى. ثم لا ننسى الحديث القدسي الذي مر بنا قريباً، والذي يبين أثر التقرب إلى الله عز وجل بالفرائض والنوافل في محبة الله عز وجل لمن هذه حاله. وأن العبد ما يزال يتقرب بذلك حتى يحفظه الله عز وجل في سمعه وبصره ويده ورجله ؛ فلا تنطلق جوارحه إلا فيما يحب الله عز وجل . وكفى بحفظ الله تعالى حفظاً وقوة وثباتاً وجهاداً.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية البقرة الأنفة الذكر: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة :45) فيقول (وحين يطول الأمد ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفذ إذا لم يكن هناك زاد ومدد ومن ثم يقرن الصلاة إلي الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفذ. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب؛ فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضا والبشاشة، والثقة، واليقين.

إنه لابد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بربه الأعلى، يستمد منه العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجه قوى الشر الباطنة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة، حينما يطول به الأمد وتبتعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئاً وشرارة العمر تميل للغروب، حينما يجد الشر نافشاً والخير ضاوياً ، ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق .. هنا تبدو قيمة الصلاة؛ إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني وربه القوي الباقي ..إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود..

ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في الشدة قال: «أرحنا بها يا بلال» (26).. ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله.

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة. والعبادة فيها ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق، وإنها مداد الروح، وأنها جلاء القلب، وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر ..إن الله سبحانه حينما انتدب محمداً صلى الله عليه وسلم للدور الكبير الشاق الثقيل ، قال له ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزامل :1-5.(

فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف الشاق، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن ...إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان)(27).

ثانياً: الصيام

والصوم من العبادات الشريفة المحبوبة إلى الله عز وجل التي تثمر التقوى، وهو يعود صاحبه الصبر وقوة الإرادة والاستعلاء على شهوات النفس، فضلاً عن كونها عبادة يحبها الله عز وجل ويثيب عليها ثواباً لا يضاهيه ثواب عبادة أخرى ؛ كما جاء في الحديث القدسي: (الصوم لي وأنا أجزي به)(28).

والمراد بالصوم صيام الفرض أولاً وإتقانه وحفظه من المبطلات، ثم صيام أيام النفل؛ وهي كثيرة منها صيام يومي الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، وصيام ست من شوال، ويوم عرفه، وعاشوراء؛ وكلها ورد في فضل صومها أحاديث صحيحة.

وأهمية الصوم في الإعداد للجهاد في أنه يقوي الإيمان والصبر ويزيد في التقوى التي تدفع العبد إلى امتثال الأوامر واجتناب المحرمات؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة :183(

وقد ذكر الله سبحانه في صفات المجاهدين الذين ورد ذكرهم في سورة التوبة وأنه سبحانه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم؛ ذكر من صفاتهم أنهم ﴿السَّائِحُونَ﴾، وقد ذكر بعض المفسرين أن من معانيها: الصائمين.

والمحافظة على نوافل الصلاة الصوم تحتاج من العبد مجاهدة وصبراً، ويقيناً بمنافعهما العظيمة في الدنيا والآخرة، كما تحتاج تعاوناً وتواص بين الدعاة، وأن تكون هناك البرامج العلمية، والأجواء التربوية، والعيشة الجماعية التي تسهل على النفوس الأخذ بهذه العبادات ويكون فيها القدوات الصالحة التي تشد الناس بقولها وفعلها إلى هذه الأعمال وتحببها إلى النفوس.

ثالثاً: الكرم والجود والبذل في سبيل الله

وهذه الأخلاق تنشأ من الشجاعة التي هي من أصول الأخلاق الحسنة؛ لأن الشجاعة تحمل صاحبها على البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته؛ بداية من بذل المال والجاه والعلم وغيرها من وجوه البذل والجود، ونهاية ببذل النفس والروح التي هي أعز وأغلى ما يملك الإنسان في سبيل الله عز وجل . وهذا من علامة محبة الله عز وجل.

ولذلك فأن البخيل في العادة لا تجده إلا جباناً خواراً، والبخل والجبن قرينان، كما أن الكرم والشجاعة قرينان، وقد قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين الجبن والبخل في دعائه حيث قال: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن» (29).

ولذلك يجب مجاهدة النفس على بذل ما تحبه، وتعويدها على الجود والإيثار وحب الخير للمسلمين، وبذل الجاه لهم بالمساعدة والشفاعة والسعي في حوائجهم. وهذا أمر يحتاجه المجاهد في سبيل الله لأن بيئة المجاهدين، وأجواء الجهاد والمجاهدين لا مكان فيها لأهل الأثرة والشح والأنانية والبخل.

ومما يساعد على تقوية خلق الكرم والجود الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة لأن حب الجهاد والبذل في سبيل الله تعالى لا يحل في قلب مشحون بالدنيا مائل إليها؛ لأن من أهم مقومات الإعداد للجهاد في سبيل الله تعالى الزهد في الدنيا والاستعلاء عليها، والاستعداد للتضحية بها في أي وقت؛ فالدنيا في حس المجاهد خادمة لا مخدومة، ومملوكة لا مالكة.

وإن مما يعين على الزهد في الدنيا وإرخاصها وبذلها في سبيل الله تعالى ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله: (لا تتم الرغبة بالآخرة إلا بالزهد في الدنيا ولا يتم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها؛ فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها . فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا؛ فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى:17.(

فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة، فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه؛ فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل)(30).

ومما يساعد على ذلك أيضاً العيش في بيئات أهل العلم والزهادة والجهاد؛ لأن في رؤية القدوات من أهل السخاء والشجاعة والجود والزهد وطول صحبتهم أثراً في التربية على هذا الخلق الكريم وغيره من الأخلاق، كما أن فيها التواصي والتذكير والحث على هذه الأخلاق.

كما أن في قراءة سير أهل الشجاعة والجود والكرم من سلف هذه الأمة وعلى رأسها سيرة سيد المجاهدين وبطل الأبطال وأكرم الخلق محمد –صلى الله عليه وسلم – دافعاً ومحفزاً للاقتداء بهم واتباع آثارهم.

الركن الثالث من أركان التزكية: القيام بالله تعالى

والمقصود بالقيام بالله تعالى تجريد التوكل عليه سبحانه والاستعانة به وحده وتعليق القلب به عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة وعدم التعلق بالأسباب مع فعلها.

والتوكل على الله عز وجل شرط في التوفيق والنصر وضعفه أو عدمه سبباً للخذلان والضياع وهذا العمل القلبي من أفضل الأعمال وأنفعها للعبد ولاسيما المجاهد في سبيل الله عز وجل أو من يعد نفسه للجهاد.

وحقيقة التوكل هو غاية الاعتماد على الله سبحانه مع غاية الثقة به وحسن الظن به سبحانه مع الأخذ بالأسباب المأمور بها وعدم الاعتماد عليها ولا التعلق بها والتبرؤ من الحول والقوة إلا به سبحانه وهو عبادة عظيمة تجمع بين تفويض الأمور إلى الله تعالى، وإحسان الظن به ، والرجاء في رحمته ونصرته، وعدم الخوف إلا منه سبحانه؛ فهو الذي بيده النفع والضر، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

لذا وجب على المجاهد أن يقوي هذه العبادة في قلبه، ويسأل ربه صدق التوكل عليه، ويأخذ بالأسباب التي تحول هذه العبادة من علم وعقيدة مجردة إلى عمل وحال يتحرك بها ويواجه الأخطار والمصائب والأعداء بها؛ لأن هناك فرقاً بين العلم بالتوكل والمعرفة به وبين كونه عملاً وحالاً.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (...وكثير ما يشتبه في هذا الباب : المحمود الكامل بالمذموم الناقص ...ومنه اشتباه علم التوكل بحال التوكل؛ فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله، فيظن أنه متوكل وليس من أهل التوكل . فحال التوكل أمر آخر من وراء العلم به...) (31).

والتربية على التوكل تأتي من الاعتناء بالفقه بأسماء الله تعالى وصفاته الحسنى؛ فهو ثمرة هذا العلم الشريف؛ كالفقه بصفات العلم والقدرة والرحمة والحكمة والتعبد لله سبحانه بها؛ لأن من أيقن كمال علم الله تعالى وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وأنه رحيم بالمؤمنين، وحكيم في أقضيته وأحكامه. من أيقن بهذا وتشرب به قلبه اعتمد على من هذه صفاته وفوض أمره إليه سبحانه.

ولا يتنافى هذا مع الأخذ بالأسباب لأن الله عز وجل أمر بالأخذ بالأسباب في قتال الأعداء فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:60)

وأمر بأخذ الحذر من الكفار فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ (النساء:71)

وظهر الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد بين درعين ولبس المغفر، وحفر الخندق؛ وهو سيد المتوكلين. ولكن قلبه لم يتعلق بهذه الأسباب، بل فوض أمره إلى الله عز وجل، ودعا ربه بالنصر وإهلاك الكافرين قال

سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الانفال:17(

ولما ظن الصحابة رضي الله عنهم ترتب النصر على الأسباب وأعجبوا بها يوم حنين هزموا في أول المعركة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة:25(

فالأخذ بالأسباب من سنن المرسلين، والأخذ بها عبادة وطاعة لله تعالى مع ترك الاعتماد عليها، بل الاعتماد على الله وحده لا شريك له في حصول المقصود بعد الأخذ بالأسباب . وقد تضيق بالعبد السبل وتنعدم الأسباب؛ وهنا ليس أمام العبد إلا عمل القلب وحده بصدق التوكل على الله عز وجل وصدق اللجوء والاضطرار إليه؛ كما لو أحاط العدو الكافر بالمجاهدين ولم يكن لهم حيلة في دفعه؛ قال الله تعالى عن المسلمين يوم أحد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (ال عمران:173(

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (والتوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزراً إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة، وتارة يكون توكل اختيار وذلك: التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأموراً به ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً؛ فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن والواجب القيام بهما والجمع بينهما. وإن كان السبب محرماً حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق . وإن كان السبب مباحاً نظرت هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به فلا تعطل حكمته – إلى أن قال – وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء)(32).

وإن من لوازم التوكل على الله عز وجل: اليقين بمعية الله سبحانه ونصرته لعباده المؤمنين وتثبيتهم، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم الكافرين بعد الأخذ بالأسباب المأمور بها وبذل الوسع في ذلك.

والناس في التوكل على الله عز وجل والأخذ بالأسباب في قتال الكافرين طرفان ووسط:

الطرف الأول: الذين يرون أن الله عز وجل سينصر المسلمين بالآيات والمعجزات والجنود الذين يسخرهم للقضاء على الكافرين ولو لم يأخذوا بأسباب النصر أو لم يكملوها؛ فما داموا مسلمين وأعداؤهم من الكافرين فإن نصر الله عز وجل سينزل عليهم؛ لأنهم مسلمون وكفى وهذا الفريق من الناس يفرط في العادة في الأخذ بأسباب النصر أو يستطول الطريق فلا يكملها، وإنما ينتظر خارقة وآية من الله عز وجل في النصر والتمكين.

الطرف الثاني: وهو مقابل للطرف الأول، وقد يكون ردة فعل له وذلك بقولهم بأنه لكي ينتصر المسلمون على أعدائهم ويمكن لهم في الأرض فلا بد أن يكونوا مكافئين لعدوهم في العدد والعتاد والسلاح وبالأخذ بالأسباب المادية، ومثل هؤلاء يغلبون الأسباب المادية ويتعلقون بها ويفرطون في الأسباب الشرعية، ولا يلتفتون إلى الآيات والمعجزات والإعانات التي ينصر الله سبحانه بها عباده المحققين لأسباب النصر متى شاء سبحانه وعلم أن عباده المؤمنين قد استفرغوا ما في جهدهم من الأخذ بأصول النصر وأسبابه . ومعلوم أن المسلمين في كل وقت- وبخاصة في هذا الوقت - لم يصلوا ولن يصلوا ولم يكلفهم الله سبحانه بأن يصلوا إلى مستوى أعدائهم في القوة والصناعة والسلاح، لأنه ليس شرطاً في نزول النصر، ولا يخفى ما في هذا القول من تطرف وغفلة عن مسبب الأسباب ونسيان قوة الله تعالى التي لا يقف أمامها أي قوة في الأرض ولا في السماء والتي ينصر بها عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر واستحقوا أن يسخر لهم جنود السموات والأرض.

الوسط: وهو الحق إن شاء الله تعالى، وهم الذين بذلوا كل ما في وسعهم في الأخذ بأسباب النصر السالفة الذكر، حيث بذلوا ما في وسعهم في الأخذ بالعلم النافع والعمل الصالح، وربوا أنفسهم على ذلك، وبلغوه للأمة قدر استطاعتهم حتى عرفتهم الأمة وما هم عليه من الحق، وعرفت أعداءهم وما هم عليه من كفر وفساد، وأخذوا بالأسباب المادية المباحة والمتاحة لهم . ومع أخذهم بهذه الأسباب فلم يعتمدوا عليها بل اعتمدوا على مسبب الأسباب ومن بيده ملكوت السموات والأرض، وانتظروا نصره المبين الذي وعد به عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر وبذلوا ما في وسعهم في ذلك، وانتظروا تأويل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: 7(

ولم ينسوا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: 7(

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر:31(

بل هم موقنون بظهور قوة الله عز وجل، وظهور الآيات بعد أن يبذلوا وسعهم في الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للجهاد، ولم يرهبهم حينئذ قوة أعدائهم من الكفرة والمنافقين مهما بلغت من القوة والدمار، لأن قوة الله عز وجل فوق قوتهم، ونواصيهم بيده سبحانه، ولو يشاء الله تعالى دمرها عليهم وأبطل مفعولها. ولكن هذا لا يكون إلا لمن حقق أسباب النصر والتمكين الشرعية والمادية.

ويحسن هنا التنبيه إلى خطورة العجب على النفوس وأنه من الأسباب التي تحبط الأعمال وتذهب بركتها وبخاصة في أجواء الجهاد ومقارعة الكافرين وأكبر شاهد على ذلك ما حصل للمسلمين في بداية غزوة حنين حينما أعجب بعض المسلمين بكثرة عددهم الذي بلغ اثني عشر ألف مقاتلاً فقالوا حينها (لن نغلب اليوم من قلة) فأنزل الله عز وجل قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة:25(

وإن من أعظم ما يعالج به داء العجب معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته والتعبد له سبحانه بعبودية الاستعانة والتوكل والتفويض ومعرفة النفس بضعفها وقصورها وخطئها ولذا قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: (وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء ومن حقق قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب، وفي الحديث المعروف « ثلاث مهلكات شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» (33) (34).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة في كثرة دعائه وتضرعه لربه سبحانه وطلبه للنصر منه في ميادين الجهاد مع فعله للأسباب فقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاث مائه وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأمده الله بالملائكة. (35)

وقد وصف الله عز وجل في كتابه المجاهدين الصديقين الربانيون بأنهم يلجئون إلى الله عز وجل ويتضرعون إليه بالاستغفار وطلب النصر والثبات ويتبرؤون من الحول والقوة قال الله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:146-148(

وأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبهؤلاء الربيين ينبغي للمجاهدين وهم يأخذون بالأسباب ألا يركنوا إليها بل يجب أن يتعلقوا بالله عز وجل ويسألوه النصر والثبات ويكثروا من الدعاء والذكر لله عز وجل وهكذا كان سلفنا الصالح في جهادهم فقد روى الذهبي رحمه الله في السير عن الأصمعي قال: (لما صاف قتيبه ابن مسلم للترك وهاله أمرهم سأل عن محمد بن واسع –العابد الزاهد المجاهد – فقيل هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه يبصبص بأصبعه نحو السماء، قال تلك الأصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير) (36) .

تنبيهان مهمان:

التنبيه الأول:

أن ما سبق ذكره من الآداب الباطنة والظاهرة التي ينبغي للمجاهد أن يتحلى بها لن تبلغ قوتها وصفاءها إلا في أجواء الجهاد. وإلا فستبقى ضعيفة مادام العبد قاعداً لأن الجهاد يربي النفوس ويصقلها ويجعل المجاهد يعيش حقيقة ما كان يدرسه ويسمعه من الناحية النظرية قبل أن يعيش أجواء الجهاد والتضحيات وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى: (ولهذا كان الجهاد سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة، كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ (المائدة:54)، وفيه سنام التوكل وسنام الصبر فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل و لهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ*الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:41،42(

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:128(

وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا، وفيه أيضاً: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن يجاهد في سبيل الله ،لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة:111)(37).

التنبيه الثاني :

سبقت الإشارة في مبحث الإخلاص وسلامة القلوب إلى خطورة التفرق والاختلاف بين المجاهدين ممن هم على عقيدة واحدة وهدف واحد . ونظراً لخطورة هذه الآفة فلا بد من التوسع في التحذير من خطرها ومآلاتها العظيمة على الجهاد والمجاهدين وذلك من خلال تقرير الأمور التالية:

الأمر الأول :

إن الاختلاف والفرقة بين المسلمين شر وفتنه وقد جاء في الكتاب والسنة نصوص كثيرة في ذم الافتراق والنهي عنه والحث على الاجتماع والائتلاف ومع ذلك فقد اقتضت حكمة الله عز وجل وأراد سبحانه كوناً وقدراً أن يكون في هذه الأمة فرقة واختلاف، وتحقق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنين وسبعين مله، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة: كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»)(38).

ولكن الله –عز وجل – الذي كتب هذا الافتراق على عباده كوناً وقدراً للابتلاء والاختبار، لم يرض لهم ذلك ديناً وشرعاً، بل جاء في أكثر من آية ذم الافتراق والنهي عنه ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ......﴾ (آل عمران:17) وقوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:105.(

الأمر الثاني:

إن خطورة الفرقة والاختلاف لا تقف عند حد الاختلاف في المفاهيم ووجود الإحن في القلوب بل إنها في بيئات الجهاد قد تتجاوز ذلك إلى الوقوع في فتنة الاقتتال واستحلال الدماء عياذاً بالله وهنا تقع الكارثة وعندها تطيش العقول ويغيب وازع العلم والعقل، وهذا ما يطير له الأعداء فرحاً ويؤذن بفشل المجاهدين وهزيمتهم كما قال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ

مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:46). فعلى أهل العلم والعقل من المجاهدين أن يحذروا ويحذّروا من هذه الفتنة ويحولوا بينها وبين من يريد إشعالها ويسعوا إلي وأدها في مهدها لأنها إذا اشتعلت صعب إطفاؤها وزاغت العقول والأبصار عن أماكنها . قال حذيفة رضي الله عنه: (ما الخمر صرفاً بأذهب بعقول الرجال من الفتنة)(39). ولذا أنصح نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين بأن لا نكون سبباً للفتنة بين المجاهدين سواء بألسنتنا أو بأقلامنا أو بأيدينا . وأن نسعى قدر الجهد في تأليف القلوب وتوحيد الصفوف وأن نكون مفاتيح للخير مغاليق للشر.

الأمر الثالث:

إن نفع الله عز وجل بجهد المخلصين في درء الفتنه قبل وقوعها أو إطفائها في أول إشعالها فالحمد لله وهذا أمنية كل مسلم محب للجهاد وأهله . وإن كانت الأخرى-لا كان ذلك- وتحول جهاد الكفار إلى اقتتال بين المجاهدين أنفسهم فلا خير حينئذ في هذه النهاية البائسة وهنا يتعين اعتزال الفتنة والنجاة بالنفس من عواقبها العظيمة في الدنيا والآخرة وهذا ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي اله عنهم ومن تبعهم بعد ذلك.

•فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع أنه أولى بالحق في قتاله لمعاوية رضي الله عنهما فقد قال مادحاً لعدم مشاركة سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الفتنه: (لله منزل نزله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر والله لئن كان ذنباً إنه لصغير مغفور، ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور).(40)

•وكان من خبر سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أنه لما قيل له: ألا تقاتل إنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك، قال: (لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد) (41).

•وعن عمر بن سعد ابن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه أنه قال لي: يا بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً لا والله حتى أعطى سيف إن ضربت به مؤمناً نبا عنه، وإن ضربت به كافراً قتله، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يحب الغني الخفي التقي».(42) (43).

•وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال (إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم لازماً لأمر جماعتهم فافعل).(44)

•وعن سلام بن مسكين : سمعت الحسن يحدث قال: لما قتل عثمان رضي الله عنه، قالوا لابن عمر رضي الله عنهما: إنك سيد الناس وابن سيدهم فاخرج يبايع لك الناس . فقال: لئن استطعت لا يهراق في محجمة قالوا: لتخرجن أو لتقتلن على فراشك، فأعاد قوله . قال الحسن: أطمعوه وخوفوه فما قدروا على شيء منه)(45(

•وعن حرملة مولى أسامة رضي الله عنه قال: أرسلني أسامة إلى علي وقال: إنه سيسألك الآن فيقول: ما خلف صاحبك ؟ فقل له: يقول لك لو كنت في شدق الأسد لأحببت أن أكون معك فيه، ولكن هذا أمر لم أره . فلم يعطني شيئاً، فذهبت إلى حسن وحسين وابن جعفر فأوقروا لي راحلتي. (46).

•عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال: لما وقعت فتنة عثمان قال رجل لأهله أوثقوني بالحديد فإني مجنون، فلما قتل عثمان قال: خلوا عني، الحمد لله الذي شفاني من الجنون وعافاني من قتل عثمان رواه عمر عن ابن طاوس وسمي الرجال، عامر بن ربيعة (47).

•وعن عمرو بن مرة: عن الشعبي قال: كان مسروق إذا قيل له: أبطأت عن علي وعن مشاهده فيقول: أرأيتم لو أنه حين صف بعضكم لبعض فنزل بينكم ملك فقال: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء:29) أكان ذلك حاجزاً لكم قالوا: نعم . قال: فوالله لقد نزل بها ملك كريم على لسان نبيكم، وإنها لمحكمة ما نسخها شيء. (48).

•وقال أيوب قال مطرف: لأن آخذ بالثقة في القعود أحب إلي من التمس فضل الجهاد بالتغرير(49).

•وقال مطرف بن عبد الله ؛ إن الفتنة ليست تأتي تهدي الناس. ولكن إنما تأتي تنازع المؤمن عن دينه؛ ولأن يقول الله لم لا قتلت فلاناً أحب إلي من أن يقول: لم قتلت فلاناً؟(50).

•عن عامر الشعبي قال لما قاتل مروان الضحاك بن قيس، أرسل إلى أيمن بن خزيم الأسدي فقال: إنا نحب أن تقاتل معنا، فقال: إن أبي وعمي شهدا بدراً، فعهدا إلي أن لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلاالله، فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك، فقال: اذهب، ووقع فيه، وسبه، فأنشد أيمن يقول:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي * على سلطان آخر من قريش

له سلطانه ، وعلي إثمي * معاذ الله من جهل وطيش

أقاتل مسلماً في غير شيء * فليس بنافعي ما عشت عيشي .(51)

نسأل الله عز وجل أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن كما نسأله سبحانه أن يوحد صفوف المجاهدين ويؤلف بين قلوبهم وأن يجعل جهادهم في سبيله ولإعلاء كلمته . اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين..

1- تفسير السعدي 26/5

2- فتح الباري 29/6

3- جامع الأصول 580/2

4- تفسير السعدي 290/2

5- في ظلال القرآن 1717/3

6- اعلام الموقعين 178/2

7- البخاري (1399)،مسلم (20)

8- سير أعلام النبلاء 4 /195

9- البدع والنهي عنها لابن الوضاح رقم الأثر (86) ص 75 ت:عمر عبدالمنعم.

10- مدارج السالكين 147/2،148

11- الصواعق المرسلة 1560/4-1562

12- مجموع الفتاوى 170/15

13- في ظلال القرآن 144/1

14- طريق الدعة في ظلال القران ص 361

15- أبو داود (2502) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (1942. (

16- الفوائد ص 150

17- سير أعلام النبلاء 408،409/8 (3) البخاري (34) ، مسلم (58(

18- أ خرجه البخاري ومسلم

19- احمد 138/5 وابن ماجة (3056) وصححه الألباني في صفحة ابن ماجة (2840(

20- الفوائد ص(157).

21- مدارج السالكين 9،8/3

22- مدارج السالكين 428،427/2

23- البخاري (7405)، مسلم (2675)

24- مسلم (2702)

25- البخاري (6502)

26- أبو داود (4986)، احمد 364/5 وصححه الألباني في صحيح أبي داود (4182) .

27- في ظلال القرآن 142،141/1 (باختصار)

28- البخاري (7492) مسلم (1511)

29- البخاري (6370)

30- الفوائد ص 95،94 باختصار

31- مدارج السالكين ص 125.

32- مدارج السالكين ص 86، 87.

33- أبونعيم في الحلية 343/2 والبهيقي في الشعب (7252) وغيرها وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة .

34- مجموع الفتاوى 277/1.

35- رواه مسلم (1763 (

36- سير أعلام النبلاء 121/6

37- مجموع الفتاوى 28/441-443 باختصار

38- أبو داود (4597) وصححه الألباني في شرح الطحاوية ص 578

39- حلية الأولياء 274/1

40- الطبري 106/1 (319 (

41-مجمع الزوائد 584/7 وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح

42- الحديث رواه مسلم (2965(

43- الأثر ذكره أبو نعيم في الحلية 94/1

44- سير اعلام النبلاء 22/3

45- سير أعلام النبلاء 239/3

46- البخاري (7110)

47- حلية الاولياء

48- سير أعلام النبلاء 68/4

49- سير أعلام النبلاء 191/4

50- حلية الأولياء 204/2

51- مجمع الزوائد 579/7 وقال البيهقي رواه أبو يعلى ورجال رجال الصحيح غير زكريا وهو ثقة .